مشكلة الأسرة المصرية

لحضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى شعراوى
زعيمة النهضة النسوية

إن مشكلة الأسرة المصرية التى تزداد تفاقما وخطورة على مر الزمن هى من أقوى الأسباب فى عرقلة تقدمنا، لأنها ليست كغيرها فى البلاد الأخرى وليدة طوارئ وقتية يتسنى للمصلحين تفاديها بعلاج أسبابها ، ولكن مشكلتنا ولدتها عوامل داخلية متغلغلة فى طباعنا وتقاليدنا ونظمنا فضلا عن بعض عوامل خارجية زادت من خطورتها وتأثيرها .

كانت الأسرة فى القدم تسير على نظام أشبه بنظام العشائر فى الخضوع لعميدها الذى يسيطر على كافة شؤونها سيطرة تامة تخوله حق التصرف فى مصالحها وفض مشاكلها وتوفير أسباب الراحة والطمأنينة لأفرادها . وكان من محاسن ذلك النظام تقوية أواصر الارتباط بين أفراد الأسرة وحفظ كيانها من التفكك والحرص على عصبيتها ومكانتها . وكان مبدأ تلك الأسرة " الكل للفرد والفرد للكل " وكان العميد بمثابة الأب لا لأفراد أسرته فقط بل لكل من يلوذ به أو ينتمى إليه . وكان الرخاء يغمر تلك العائلات وجميع أفرادها يتمتعون بالمساواة فى الحقوق والواجبات فى كنف عميدهم الذى كان احترامه وحبه يملآن قلوبهم .

كان هذا النظام يسود جميع الأسر لا فارق بين الغنية والفقيرة إذ كانت الفوارق لا توجد إلا فى أسرة الحاكم بين السادة وبين الجوارى والعبيد . وكذلك كان مركز الزوجة فى الأسرة لا يقل خطورة عن مركز العميد فى المكانة والاحترام اذ كانت تسيطر داخل البيت على كل شؤونه ونسائه وكان الهدوء والتعاون يؤلفان بين الجميع ، اللهم الا إذا دخلت البيت شريكة أخرى فكان هذا الحادث يهز البيت ويفقد الزوجة أهم ركن من أركان مملكتها الصغيرة وحو قلب زوجها الذى لا يعوضها عنه بقاء سيطرتها أو نفوذها . وكان الحزن يخيم على وجه الزوجة وتغشى الأسرة سحابة من الأسى والكآبة .

وما زال هذا النظام يسود بعض الأقطار العربية كما أنه كان متبعا فى بلادنا إلى وقت غير بعيد حينما كانت مطامعنا وتكاليفنا محدودة لا تتعدى ما يكفل للحياة الهادئة لوازمها والاحتفاظ بالكرامة والدفاع عن الشرف والعقيدة .

ولما طرقت المدنية الغربية أبواب الشرق ثم غزته بأساليبها المختلفة ونشرت مبادئها المعقدة ومطامعها الاستعمارية المرهقة اضطربت حياتنا واندثر معظم مبادئنا السمحة فرحنا نقلد حثالة المبادئ الأوربية ونتعلق بأذيال الظواهر الكاذبة تهزنا نشوة التشبه بالقوى .

ولكن للأسف كنا فى ذلك كله نأخذ بالقشور دون اللباب . وحنا نقلد نقائص الأوربى دون محاسنه ، قلدناه فى اللهو واللعب والرقص بدل أن نقلده فى نشاطه ومتانة أخلاقه وجده وابتكاره . استهوتنا الملابس الغربية الخليعة فاستبدلناها بملابسنا الوطنية الوقورة . وأقبلنا على شراء منتجات الغرب فكسدت أسواقنا واضمحلت صناعتنا .

أعجبتنا تقاليدهم فتبعنا الطائش منها وأعرضنا عن الصالح . علمنا أولادنا وبناتنا لغاتهم ليستفيدوا من علومهم وآدابهم وفنونهم فتعلقوا بها ونبذوا فنونهم وتاريخهم ولغتهم وآدابها . حتى أصبح الأديب فى بلادنا يعتبر نفسه شهيدا كما يقول " الأستاذ توفيق الحكيم " و لحق يقال إن الأديب فى بلادنا لا يقدره إلا القليل . وقد مال أبناؤنا عن عادات الشرق الكريمة وأصبح من السهل عليهم التكلم باللغات الأجنبية لكثرة ما اعتادوها فتصدع بذلك مظهر قوى من مظاهر القومية المصرية .

استهوتنا وسائل التسلية الأجنبية فاستبدلنا بالشطرنج والسيجا وغيرهما من الألعاب الشرقية الشيقة المفيدة البوكر والبريدج والكونكان وباقى أنواع المراهنات التى يتخذ الأوربى منها تسليته باعتدال . أما المصرى — المتغالى بطبعه فى كل شىء — فيندفع فى هذا المضمار حتى يفقد ثروته . وكم من بيوت خربت وعائلات تقوض بنيانها من جراء ذلك .

تركنا مشروباتنا الوطنية النافعة كالخروب والسوبيا وعصير القصب والتمر هندى والعرقسوس وغيرها وحنا نحتسى الخمر بأنواعها ونتغالى فى شربها حتى نفقد الرشد والكرامة .

رأينا السائحين يفدون إلى بلادنا لزيارة آثارها ومعالمها ودرس عوائدنا فحنا نقدمهم فى السياحات ولكن بدلا من أن نعود منهم بحقائقنا ملأى بمذكراتنا عن بلادهم ومعلوماتنا عن أحوالهم وآدابهم كما نعود بحقائقنا حالية من دنانيرنا . يذهب المصرى إلى "مونت كارلو" وغيرها من البلاد الغربية فيظهر بمظهر البذخ حتى ينفق كل ما يملك . وحتى فى بلاد الاستشفاء كفيشى وكارلسباد وغيرهما نراه يقضى معظم نهاره فى البكاريهات و لكارينات وغيرها من محال اللهو واللعب فلا هو اعتنى بصحته ولا هو أبقى على دراهمه .

وليت الأمر كان يقف عند هذا الحد بل كثيرا ما يعود المصرى مخمورا بأن إحدى العاملات الغربيات أو من دونها مرتبة تنازلت بالزواج منه . بينما هنا قريباته ومواطناته أولى به وأصلح له . ولا تخفى عليكم نتائج كل هذه التصرفات وتأثيرها على حياة العائلة وعمارها .

وفضلا عن ذلك أننا لما بدأنا نهضتنا لم نضع بناءها على أساس متين مستقر من التشريع والتعليم ونظم الحياة الاجتماعية . ولم نعن بتهذيب الفتاة — وهى عماد الأسرة — وإعدادها لاستقبال حياة الزوجية والأمومة بل أقمناه على أنقاض الماضى . ولم نعد أنشىء للاعتماد على النفس ومواجهة الحياة العملية .

وكانت نتيجة ذلك أعداد شباب متواكل قنوع آماله محدودة ومطامحه محصورة تنقصه القوة الحافزة للكد والاختبار والابتكار قال أمير الشعراء يستثيره :

شـــباب قنّع لا خير فيهـــم وبورك فى الشباب الطامحينا

وكيف يكون غير ذلك وهو محروم من حرية الفكر وحرية البحث الشخصى وحرية الرأى تصدعه العراقيل العائلية وتحد من نشاطه الأزمات السياسية وتعوقه الفوضى الفكرية وتعرقل سيره الفوارق الاجتماعية والمشاكل الاقتصادية والانهيار الخلقى .

ينشأ المصرى ويشب غالبا فى بيئة لا مبادئ لها ولا تمسك بالقومية ولا شعور بمسئولية ما نحو المجتمع ولا مثل عليا فى التربيـــة أو الأخلاق . فهو يشب بين نضال مستمر داخل البيت وخارجه . نضال عائلى بين أمه وأبيـــه يولده نظام الضرائر ونضال بين أخته وأخيه ويثيره اختلاف الناشب بين الأمين ومحاباة الأب لاحداهما ، أو شكاوى فى المحاكم بسبب الميراث أو تقصير الأب فى القيام بواجب النفقة أو الحضانة . أو مشاكل العدة والصداق والطلاق الخ ... أو نضال مستديم بين أهل البيت نتيجة الفوارق الفكرية والثقافية .

وعند ما يخوض الشاب معترك الحياة العـامة يتعرض لنضال أشد وأقسى وهو نضال الأحزاب ومعارك الانتخابات والسعى وراء التوظف والكفاح فى سبيل العيش ومقاومة تيارات النقائض المختلفة التى تؤجج فى نفسه صراعا عنيفا بين الفضيلة والرذيلة ذلك الصراع الذى يؤدى غالبا إلى هزيمة الفضيلة نظرا لعـدم متانة تأسيسه . اللهم إلا اذا كانت الطبيعة قد عصمته فيمكنه إذ ذاك فقط الانتصار فى صراعه على كل هذه العوامل .

إن المصرى بطبيعته مولع بمحاربة كل تحديد . قام قاسم بدعوته لتحرير المرأة تمكينها من التعليم وإعدادها لأن تكون زوجة مستنيرة الفكر وأما صالحة مقتدرة على تربية أولادها تربية صحيحة تؤهلهم إلى خوض غمار الحياة المدنية التى تحياها الأمم المتحضرة ، فما كان من معاصريه إلا أن ناوأوا دعوته وما زال نفر منا حتى الآن يرميه بالدعوة إلى التحلل والفجور . فلو أن هؤلاء الناس تريثوا وتفهموا دعوته على حقيقتها وأخذوا بها من ذلك الحين لأصبح فى جيل اليوم آباء وأمهات صالحون متكافئون فى التعليم والتفكير والثقافة متعاونون فى العمل على رفع شأن البلاد متكاتفون فى اعداد جيل للمستقبل أفضل منهم وأقوى .

قام كذلك الشيخ محمد عبده يدعو إلى ادخال بعض الاصلاحات الاجتماعية فى التشريع بحيث تمشى مع العصر الحديث ولا تتنافى مع أصول الدين فرمى بالانحراف عن مبادئ الدين واتهم بالميل إلى التفرنج . وأذكر أن جماعة من المعجبين به المقدرين لفضله أرادوا بعد وفاته احياء ذكراه بحفلة يقيمونها فأثار الأهلون ضجة لمنع هـذا الاجتماع ، واليوم نرى اسم الشيخ محمد عبده محاطا بكل اجلال وتقدير .

كذلك غيره من المصلحين صودرت كتبهم وفصلوا من وظائفهم بسبب تقدم أفكارهم ومحاولة التجديد لصالح بلادهم ومواطنيهم ثم اعترف لهم بفضلهم وأصبحوا فى مقدمة المصلحين. فكأننا دائما نعارض فى مبدأ الاصلاح ثم ينتهى بنا الأمر إلى التسليم بضرورته . وبذلك نخسر عاملا من أهم عوامل النجاح وهو الوقت .

ولما جاء دور المرأة للمطالبة بحقوقها المشروعة وتنفيذ ما خولها الدين الحنيف من هذه الحقوق التى حال بين المرأة وبين استردادها ما كانت فيه من جهل وعزلة حقبة من الزمن ذاقت فى خلالها صنوفا من التعسف قامت تطالب بتقييد تعدد الزوجات إلا لضرورة شرعية أو صحية شارحة أثره السئ على حياة العائلة وتماسكها وسعادتها . وطالبت أيضا بوضع حد لفوضى الطلاق والظلم التى تعانيه المرأة من نظام بيت الطاعة وقصر أمد الحضانة . كل هذه الأمور المجحفة بها المهددة لطمأنينتها . ولما لم يجرؤ أولو الأمر على وضع حل حاسم لنزاع القائم بينهم وبين المرأة الحديثة ورغبة فى ارضائها وتخديرها عالجوها بالآمال وأدخلوا على القوانين القائمة بعض اصلاحات طفيفة لم تغير من جوهرها ولم تخفف من وطأتها مع أن نصوص الشريعة صريحة فى ما تطالب به المرأة من حقوق .

وعلى الرغم من أن هذه الإصلاحات لم تف بالغرض المنشود أثار بعض الناس اعتراضات شديدة ضدها . وأذكر أنى كنت أتكلم فى قاعة يورك منذ أربع سنوات عن مطالب المرأة ولما تناولت موضوع تعدد الزوجات ومخالفة طريقة تنفيذه لروح الشريعة السامية وقلت إذ ذاك إن المرأة لا تطلب إلا شيئا معقولا وهو ألا يسمح للرجل بتعدد الزوجات إلا لأسباب صحية أو شرعية كعجز المرأة عن تأدية وظيفتها أو لسبب العقم والأمراض المعدية أو المستديمة ما كان من أحد الحاضرين إلا أن هب صائحا (يحيا تعدد الزوجات) كأنما تعدد الزوجات إذا لم يهتف له أحد انهار ركن متين من أركان الدين !

يظن البعض أن تطور المرأة الحديث سبب قوى لانهيار العائلة وأن من نتائجه تدهور الأخلاق وتفشى العزوبة وكثرة الطلاق . وإنى وإن كنت لا أومن بهذا إلا أنى فى الوقت نفسه أعترف بأن طفرة الانقلاب الحديث كان لها أثر فى هذه النتائج لأن هناك عائلات لم تفهم الغرض من هذا التطور ولم تحسن التصرف فى الاحتياط له فأعطت أولادها الحرية الكاملة وحافظت هى على تقاليدها القديمة فعاشت وأولادها كأبناء جيلين متباعدين فى عصر واحد وفى بيت واحد .

فمثلا نرى كثيرا من الأزواج والآباء يهربون من الخروج مع زوجاتهم وبناتهم السافرات عند قضاء مصالحهن أو فى نزهاتهن أو زياراتهن وسهراتهن تمسكا بالتقاليد القديمة وخشية أن يراهم أصدقاؤهم أو معارفهم مع زوجاتهم أو بناتهم وبذلك يتركونهن مع حداثة عهدهن بالحرية والسفور يرتدن المحال التجارية ودور السينما والتياترات وغيرها عرضة لنظرات

الرجال ومطاردات الشبان الذين لم يعتادوا آداب الاختلاط. وذلك بدلا من أن تكون عندهم الشجاعة الأدبية اللازمة لمرافقة زوجاتهم و بناتهم ما أمكن وتوجيههن توجيها طيبا ورعايتهن رعاية حسنة .ولو أحسن الرجال لابتكروا الوسائل الأدبية لتسلية عائلاتهم وتوسيع مداركها بالثقافة الاجتماعية الكافية وذلك لا يتوافر إلا إذا ضحى الرجل بأوقات الفراغ التى ينفقها منفردا وأشرك أسرته فيها . وفى ذلك ما يبعث فى الأسرة روح التآلف والانسجام .

أما تفشى العزوبة فانى أعتقد أن من أهم أسبابه مبالغة بعض الآباء فى فرض المهور الباهظة على الشبان أو تطلعهم لشبان أغنى وأرفع شأنا من بناتهم دون أى اعتبار آخر . وكذلك تغالى الشبان فى مطالبهم إذ يريد الشاب زوجة غنية مثقفة ومن عائلة طيبة . وأنى لنا بإجابة هذا الطلب لجميع أمثاله ؟ ومن هم فى مستواه ؟ بينما نرى الفقير يتزوج مبكرا بمن هى فى درجته رغبة منه فى تكوين أسرة لا لمطامع أخرى .

والأسرة التى لا تقام دعائمها على تكافؤ الزوجين فى الأخلاق والتربيـة والتعليم والسن تفقد فى الغالب توازنها وتسودها الفوضى وتتفكك عراها ؛ ومعنى ذلك أن التوازن فى الأسرة هو الأساس الذى يكفل لها التقدم والنجاح ؛ وما مشكلة الأسرة المصرية إلا تلك الفوضى المتغلغلة فى نظمها ومرافق حياتها و بالأخص فى حالتها الاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية تلك النواحى التى تتأثر بها الأسر أبلغ تأثير .

إن الأمة هى مجموعة من الأسر ورفاهيتها متوقفة على نجاح نظام تلك الأسر من حيث الأخلاق والثقافة ؛ ولكل أسرة فى مصر مشاكلها ومطالبها .

فأسرة العامل والفلاح تشكو البطالة والفاقة وظلم المرابين واجحاف الوسطاء وتئن من الأمراض التى تفتك بأفرادها فتكا ذريعا كالبلهارسيا والانكلستوما والرمد ومن عدم توافر الأسباب الصحية كردم البرك والمستنقعات التى تؤوى كثيرا من جراثيم الأمراض، و يشكو العمال خاصة من انخفاض أجورهم وارتفاع وسائل المعيشة .

والطبقة الوسطى تشكو عدم تناسب المرتبات أو الدخل مع حاجيات العائلة ونفقات الأولاد فى التعليم والمعيشة وكثير منهم لا يجد وظيفة فى الحكومة بعد اتمام علومه بسبب تفشى المحسوبية أو فى الشركات التى لا تفتح أبوابها للمصريين إلا بقدر محدود بينما لا تسمح له خبرته ولا حالته المالية بأن يخوض معترك الأعمال الحرة .

أما الأسرة الراقية فقد أعطيت فكرة عنها فيما تقدم .

***

شرحت إجمالا الأسباب التى تؤثر على حياة الأسرة المصرية ونظامها وكيانها، ورسمت صورة بارزة للمصرى المتحضر وكيف كان التقليد الأعمى عاملا هداما فى أخلاقه وماليته ومظاهر قوميته الشرقية حتى لم يبق منها إلا مظهران يشف عنهما أى رداء أجنبى يرتديه ولو وصلت به مطية التقليد إلى أقصى حدود القطب الشمالى وهما التواكل وحب الظهور .

ولقد تعرض لبحث هذه المشكلة وعلاجها كثير من المصلحين الاجتماعيين وكان منهم المتفائل والمتشائم . وقد أعجبنى النهج الذى نهجه الأستاذ فكرى أباظه فى محاضرة عن هذه المشكلة ألقاها أخيرا فى دار الاتحاد النسائى المصرى أبرز فيها بأسلوبه اللطيف وطريقته المؤثرة عيوبنا الاجتماعية من جميع نواحيها وانتهى رأيه إلى أن علاج الأسرة المصرية ميؤوس منه فى هذا الجيل وأنه مؤمن بأن الأمة التى تقلد وتلتقط من الغير وتنتقل من سجن التقاليد إلى فضاء الحرية و " المودرنزم " هى أمة فى فترة الانتقال . هى فترة التضحية فى الأخلاق وفى الشباب وفى المناعة و إلى أن تنتهى هذه الفترة وتستقر قواعد الأسرة المصرية يمكننا أن نطمع فى إيجاد الأسرة النموذجية وفى تخريج الشباب النموذجى . أما اليوم فلا .

وأبى تواضعه أن يضرب لنا بأسرته مثلا حيا للأسرة النموذجية لأن الأسرة الأباظية فى مصر تعتبر الأسرة النموذجية الجديرة بأن تحتذى . فهى تكاد تكون الأسرة الوحيدة التى مازالت تحافظ على نظام الأسرة القديمة رغم تقدمها وتمشيها مع المدنية الحديثة .

ولهذه الأسرة العريقة قانون خاص ومجلس خاص يطلق عليه اسم (المجلس العائلى للأسرة) وعميدها أكبر أفرادها سنا وأعضاء هذا المجلس عمد ء الفروع . ومهمته الفصل فى المنازعات والقضايا العائلية ورعاية مصالح أفرادها وله صندوق تعاون لاعانة المحتاجين منهم ومجلة خاصة هى لسان حالهم وسجل أخبارهم . كما أن هناك جمعية أسست منذ ٣٠ سنة أطلق عليها اسم (جمعية الناشئة الأباظية) تهتم بشؤونهم الأدبية والرياضية والفنية .

ومع تقديرى لآراء الأستاذ فكرى أباظه وآراء من عالجوا هذا الموضوع أرى أن كل ما نبذله فى سبيل الأصلاح — وإن كان مجديا نوعا ما — إلا أننا لن نصل إلى نتيجة مثمرة إلا إذا عالجنا الداء من أساسه وقضينا على جراثيمه الأصلية من منابتها . وأعتقد أن الجهل هو السبب المباشر لكل ما نقاسيه من ويلات فلذلك يتحتم على الحكومة أن تعنى كل العناية بتعميم التعليم وجعله إجباريا ومجانيا وأنادى بأعلى صوتى أن هذه مسئولية خطيرة وأمانة غالية فى أعناق القائمين بالأمر .

وكذلك يجب أن يكون التجنيد إجباريا لتقوية النشء وتعويده النظام والطاعة وتغذية الروح الوطنية .

بقى علىّ أن أؤيد الرأى القائل . بجعل الزكاة الشرعية ضريبة تفرض على الموظفين والمولين من المسلمين تقوم الحكومة بتحصيلها مع باقى الضرائب و إيداعها صندوق الإحسان بوزارة الشؤون الاجتماعية لتتولى توزيعها على أوجه الإحسان ومكافحة التشرد والتسول ومساعدة المستحقين من ذوى العاهات الذين يقومون بالإنفاق على عائلاتهم ولا يمكن تركهم فى الملاجئ الحكومية .

ويجب تحريم بيع الخمور لمن هم دون الثامنة عشرة وضرورة إلغاء الرسمى الذى تعب المصلحون من علاج مشكلته دون جدوى . وإنى لا أترك هذه الفرصة تمر دون أن أسجل على حكوماتنا تهاونها فى إزالة هذه الوصمة عن جبين مصر الإسلامية .

فلنشمر جميعا فى هذه الظروف العصيبة — حكومة وشعبا — عن ساعد الجد ونترك المشاحنات الحزبية جانبا ونعالج متكاتفين وجوه الإصلاح وما خلفه لنا أسلافنا من مشكلات ولنستعد لمثل هذه الظروف حتى نتفادى بقدر الإمكان ما قد نتعرض له — لا قدر الله — من نتائج هذه الحرب الطاحنة .

وهنا يطيب لى أن أذكر بالثناء تلك الرغبة الوطنية الصادقة التى أبداها حضرة صاحب الدولة حسين سرى باشا ابان توليه وزارة المالية حيث قال بحق (خليق بنا أن نتهيأ للتطور الشامل الذى سيلم بالعالم عندما تضع الحرب أوزارها وأن نضع من الآن برنامجا شاملا للاصلاح دون نظر للموارد) .

* * *

والآن أيها الناهض أستميحك المعذرة فى قسوتى عليك فما كنت — وأنا أنحى عليك باللائمة المرة — إلا الأم الكليم أمام أبنها لا مأرب لها إلا سعادته . مسكين أنت أيها الشباب المصرى شببت كالطفل اليتيم الذى لم يجد من يحنو عليه ودرجت فلم تجد من يقود خطواتك الأولى. لقد أنهيت دور الطفولة وجزت دور المراهقة وبلغت الرشد. وها أنت ذا فى سن الرجولة فماذا تنتظر ؟ خذ من الأيام وتجاربها والحوادث ومصائبها المعلم والموجه الذى لم تجده من قبل . فالمستقبل لك وبيدك والوطن التعس يرجوك ويتطلع إليك .

الآن يجب أن تنزع ثياب الكسل والخنوع للقدر، انزع ثياب المدنية الزائفة وارتد ثوبك القومى الحقيق وجد وجاهد لتصمد فى هذا العراك وضع نصب عينيك المحافظة على ثرى بلادك ونيلك الكوثر العذب . عد إلى الأرض أمك الرؤوم وأحن عليها واقطف من روابيها ثمار كدك حافظ عليها كما تحافظ على عينيك وحذار أن ينتزعها منك منتزع فهى لك وهناك مستقبلك الساطع يناديك. هناك على البساط السندسى الجميل ابن عشك ومصنعك ومعهدك وانتعش بشمس بلادك وتمتع بسمائها الصافى الجميل واترك يابنى الكباريهات والكازينات والمراهنات لمن أقاموها. أرم تلك الكأس الدنسة من يدك فلا رشد معها ولا دين ولا فلاح، تمسك بذمتك ولا تفرط فى عقيدتك أيها الشاب الناهض . وأنصف أمك مصر التى غذتك بخيرها ومائها . اذهب إلى العمل واخلع رداء التواكل عنك وخذ سمتك إلى ذلك المجال على عجل فسأسبقك إليه قبل فوات الوقت الغالى .

هدى شعراوى